امام الحرمین

إمام الحرمين

أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني

تأليف

الدكتور عبد العظيم الديب

كلية الشريعة - جامعة قطر

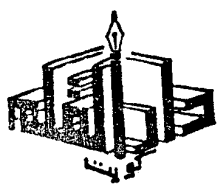

الطبعة الأولى

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار القلم ـ الكويت ـ شارع السور ـ عمارة السور
ص . ب . ٢٠١٤٦ ـ هاتف ٤٢٥١٦٠ ـ برقيا توزيعكو

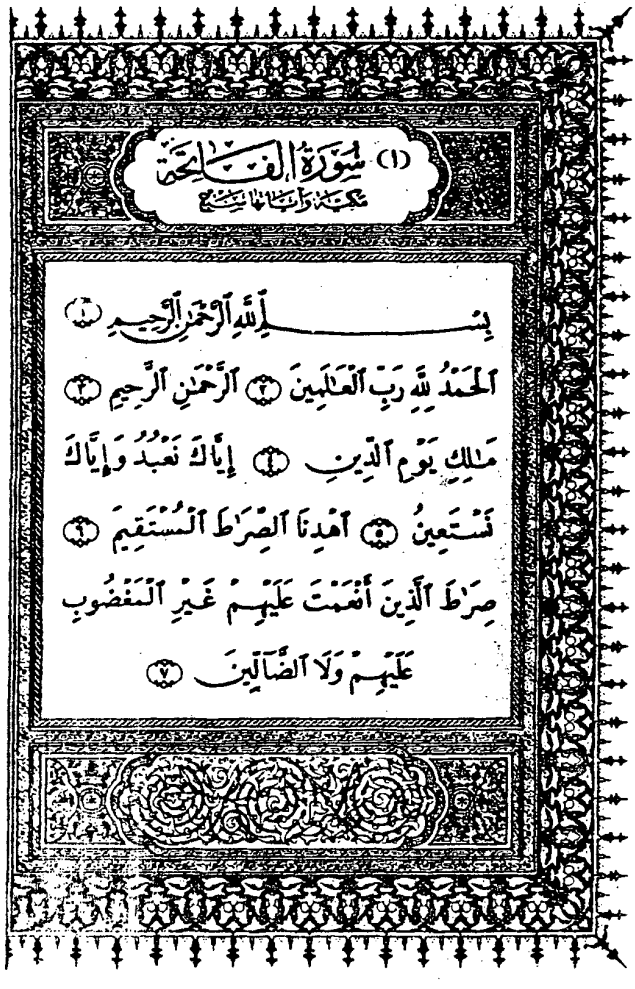

(١) سورة الفاتحة

مكية وآياتها تسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

الإهـــداء

إلى روح أبى الذي فارقنا وأنا بعـد لم أضع قدمى على الطريق !!

إلى روح أبى عسى أن يسعد بأنى اتخذت الطريق الذي كان يتمناه .

إلى أبى إهدائى ودعائى دائماً أن يتقبله الله فى الصالحين .

ولدك

عبد العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

بسم الله وحده ولا شيء معه دائماً وأبدا .

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » . « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما » .

اللهم إنا نبرأ إليك من حولنا وقوتنا ونلوذ بحولك وقوتك سبحانك . سبحانك لا حول ولا قوة إلا بك . اللهم إنا نعوذ بك من الخطأ والخطل ، وسيء القول والعمل ، ونضرع إليك سبحانك أن تطهر قلوبنا ، وتجعل عملنا وقولنا خالصاً لوجهك الكريم .

ونصلي ونسلم على صفوتك من خلقك وخاتم رسلك سيدنا محمد النبي الأمي اللهم صلى عليه وعلى آله ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد :

فهذه دراسة عن إمام الحرمين أبي المعالى ، قمت بها منذ عشر سنوات بالتحديد ، وجعلتها مقدمة لتحقيق كتابه (البرهان في أصول الفقه) ، ومن

يومها وهي مطوية لم تنشر ، إذ كان نشر البرهان هو كل همى ، وشغلى الشاغل . ولما أذن الله للبرهان أن ينشر ، لم أشأ أن أثقله بطبع كل هذه الدراسة فى مقدمته ، لا سيما وأنه يقع فى مجلدين كبيرين .

وحين عدت لهذه الدراسة أهيئها للنشر ، وجدت السنين العشر ، قد فعلت فعلها ، فصرت غير راض عن كثير منها ، إذ وجدت فيها ما يستدعى البسط والتفصيل ، بل وجدت ما يستدعى التغيير والتبديل ، ذلك أن صحبتى لإمام الحرمين ما زالت مستمرة ـ وأرجو ألا تنقطع ـ وقد كشفت لى عن بعض ما يستحق التصويب .

ولعل أيسر ذلك وأظهره ، أننى قمت بهذه الدراسة ، فى ظل إمام الحرمين المتكلم ، فقد كانت هذه صورته في ذهنى وأمام عينى ، رغم أننى كنت أعايشه فى كتابه الأصولى (البرهان) ذلك أنى كنت أنظر حولى فأرى العلماء والباحثين لا يذكرون عنه رضى الله عنه إلا علم الكلام ، فحين قدمت الرسالة الجامعية ونشرت الأبحاث والكتب لم تتجه إلى هذه الوجهة ، فى منتصف العقد الخامس من هذا القرن الميلادى ، قدمت رسالة إلى كلية أصول الدين بالأزهر ، وعنوانها يكشف عن موضوعها ، فهى بعنوان (إمام الحرمين بانى المدرسة الأشعرية الحديثة) للمرحوم الدكتور على جبر[1] .

وفى سنة ١٩٦٥م نشر بحث بعنوان (الجوينى إمام الحرمين) ولعله رسالة دكتوراه للدكتورة الفاضلة فوقية محمود ، ولكنه أيضاً انصرف إلى الجوانب الكلامية وحدها فهو يقع فى بابين : الأول عن سيرته وحياته ، والثاني بعنوان الجوينى المتكلم) .

وحين اتجهت أنظار الناشرين والمحققين إلى كتبه ، لم نجد إلا الكتب الكلامية ، فنشر له : (العقيدة النظامية) بتحقيق العلامة محمد زاهد الكوثرى رحمه الله ، (والإرشاء إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد) بتحقيق المرحوم

---

(١) لم تطبع هذه الرسالة ، ولم يتيسر لنا الاطلاع عليها ، رغم ما بذلنا من جهود .

الدكتور محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم ، و (لمع الأدلة في قواعد أهل السنة) بتحقيق الدكتورة النابهة فوقية محمود .

كانت هذه صورة إمام الحرمين (عالم الكلام) حين قمت بهذه الدراسة فوجهتها لا شك ، وأثرت فيها لا ريب .

ومن هنا لم تتضح صورة إمام الحرمين الفقهية ولا الأصولي كما ينبغي في هذه الدراسة برغم أن معايشتي لإمام الحرمين ـ فيما بعد ـ جعلتني أراه أصولياً فقيها أكثر مما هو متكلم . وقد أفردت هذه الناحية (أصوله وفقه) بدراسة خاصة تليق بها في نحو ستمائة صفحة ، ستنشر مستقلة قريباً إن شاء الله.

أقول : لم أشأ أن أغير شيئاً في هذه الدراسة ، وآثرت نشرها كما هي لسببين :

أولا : أنها تمثل مرحلة من التفكير ، وحلقة من سلسلة التطور في الدراسة والفهم ومن الأمانة والصدق أن تظل كما هي .

ثانيا : أن التغيير والإضافة والحذف في مثل هذه الأعمال كثيراً ما يكون أشق وأصعب من البدء والإنشاء ، وقد يؤدي إلى تشويش واضطراب .

والتغيير الوحيد الذي أجريته في هذا العمل أنني أضفت إليه موضوعين جديدين عن الإمامة والدولة في رأي إمام الحرمين ، ثم أثر إمام الحرمين في الفقه الإسلامي .

وإلى الله ضراعتي أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، وأن يعيننا على نقاء القلب وصفاء الضمير ، وأن يتولى عنا مثوبة كل من عاوننا من كرام الأساتذة وخيار الباحثين . إنه نعم المولى ونعم النصير .

عبد العظيم الديب

الدوحة ـ قطر : ١٥ ربيع الأول سنة ١٤٠٠
أول فبراير سنة ١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

حياته

تمهيد :

العصر والبيئة

شغل إمام الحرمين من الزمان تسعا وخمسين سنة من سنى القرن الخامس[1] الهجرى (٤١٩ — ٤٧٨) .

ومن المكان المشرق الإسلامي الذى كان معروفا فى ذلك الوقت .

أما علمه وصيته ومنزلته ، فقد ملأت من المكان المشرق والمغرب ومن الزمان من يوم أن نبغ وظهر إلى اليوم ، ثم إلى ماشاء الله .

وفى الصفحات التالية محاولة لبيان ذلك وعرضه فى إيجاز .

العصر سياسيا[1] :

تقع هـــذه الفترة التى عاشها امام الحرمين فى عهد ثلاثة من الخلفاء العباسيين وهم :

أحمد القادر بالله ٣٨١ — ٤٢٢ هـ .

عبد الله القائم بأمر الله ٤٢٢ — ٤٦٧ هـ .

عبد الله المقتدر بالله ٤٦٧ — ٤٨٧ هـ .

وبالنظر الى أسمائهم ، وبغير عناء نرى هذه الأسماء الثلاثة من الأسماء المهملة فى التاريخ الإسلامى ، أو فى تاريخ خلفاء بنى العباس .

---

(١) رجعنا فى هذه العجالة الى : الكامل لابن الأثير ، وتاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن ، والحضارة العربية فى القرن الرابع ، وظهر الاسلام ، وبعض الكتب التى تؤرخ للحضارة الاسلامية .

وكل ما كان لهم قصر فى بغداد ، ولقب وشارة ، و عمامة مسوداء (شعار بنى العباس) ودعوة فى الخطبة يوم الجمعة .

ففى تلك الفترة كانت الدولة الإسلامية قد وصلت غاية التمزق الذي بدأت خطورته منذ فجر القرن الرابع ، فتفرقت إلى دويلات فى المشرق والمغرب .

ففى المغرب كان الفاطميون قد ملكوا شمال إفريقية ، وأحكموا قبضتهم على مصر بعد التغلب على الإخشيديين ، ثم أمتد نفوذهم إلى الشام متغلبين على بنى حمدان . وبدأت الأحـــلام تراودهم فى السيطرة الكاملة على بغداد ، وانتزاع لقب الخلافة من العباسيين .

أما الأندلس التى كانت قد خرجت مبكرا فى سنة ١٣٨ هـ ، عن الخلافة فى بغداد ، فقد دخلت هي أيضاً فى عصر الطوائف ، ولم تبق دويلة واحدة بل تقسمتها الأهواء منذ مطلع القرن الخامس الهجرى .

أما فى المشرق ، فقد ظهرت الدولة السامانية منذ سنة ٢٦١هـ فى أواسط آسيا ، واستقلت ببخارى وبلاد ماوراء النهر : والحمدانية بحلب، والطولونية ثم الاخشيدية بمصر والغزنوية فى أفغانستان والهند من ٣٥١ هـ والبويهية فى فارس والعراق منذ ٣٢١ حتى ٤٤٧هـ . ثم السلاجقة الذين ظهروا فى التركستان وأخذوا فى التوسع حتى امتد نفوذهم على أنقاض البويهيين حتى وصلت سيطرتهم على بغداد نفسها فى عام ٤٤٧هـ .

ونحب أن نؤكد أنه مع هذا التمزق الذى جعل الدولة دويلات والقوة قوي ، فقد كان هناك إثارة من قوة ، وبقية من فتوة فى كثير من هذه الدويلات .

العصر اجتماعيا :

أما من الناحية الإجتماعية ، فنحن نعلم أن العنصر الأعجمى ظهر كعنصر مؤثر فى الحياة الإسلامية ، كما كان فى العصر العباسى الأول . ثم كعنصر

مسيطر كما كان في العصر العباسي الثاني ، وأدرك العرب أن الدولة ليست دولتهم وحدهم وأنهم مطالبون بالعيش مع غيرهم من الأعاجم ، وعرفوا أن الفرس شركاؤهم وأن الترك أندادهم ، فتنازلوا — منذ ذلك الحين — عن كبريائهم ، وأخـــذوا في الإختلاط بالأعاجم مع فجر الدولة العباسية سنة١٣٢هـ .. واستمر الاختلاط حتى صار امتزاجا واندماجا . وما كان القرن الخامس حتى كانت قد تولدت أجيال تحمل خصائص العناصر الأجنبية مع الصفات العربية ، وتظله العقيدة الإسلامية . ومع ذلك يموج بعقايل[1] من عقائد بائدة : فارسية وهندية ويونانية وسريانية .. الخ .

وقد ساعدت الحرية الدينية والمذهبية والإجتماعية التي يكفلها الإسلام ويرعاها على بقاء هذه البقايا ، بل انها أخذت تستشعر شيئا من الحياة والقوة منذ العباسيين ، وتطل برأسها على خفر واستحياء حينا ، ومجاهرة ومكابرة حينا ، وحينا تلبس ثوبا عصريا ، فتتستر وراء شيعة أو رافضة أو خوارج .. أو نحوها .

وفي حنايا ذلك المجتمع أيضاً رأينا بقايا من كل الحضارات التي احتوتها الدولة الإسلامية ، وتمثلتها ، فرأينا آثاراً من ترف هذه الحضارات وعاداتها وتقاليدها يظهر في البيئة الإسلامية : ملبسا ، ومسكنا ، وطعاما ، وشرابا .

وساعد على ذلك الرخاء والغنى الذي عم الدولة الإسلامية عقب انتهاء فترة الفتوح وبدء الاستقرار والبناء ، وكذلك التنظيم الإسلامي ، والعدل الديني الذي نعمت به البلاد . وبخاصة في القرنين الثاني والثالث ، وبصفة عامة بعد ذلك .

وكلما ضعف سلطان الدولة ازدادت هذه المذاهب والفرق والعقائد قوة حتى كان القرن الرابع ومن بعده الخامس ذروة الصراع المذهبي ، والجدل الطائفي والمناظرة العقائدية .

---

(١) عقابيل جمع عقبولة ، وهي ما يتبقى في الجسم من آثار العلة والمرض . ولم نجد لفظة أوفى وأدل من هذه اللفظة .

ومع ماقلناه من أن طابع الحكم كان التسامح مع كل المذاهب والفرق إلا أن هذه الحرية أخذت تضيق شيئاً فشيئاً حتى رأينا حكام الدويلات — بصفة عامة — يتخذون لأنفسهم مذهبا ينصرونه ويكنون له ولو على حساب غيره من المذاهب إلى حد يصل إلى التنكيل والتشريد .

ونجمل سمات المجتمع فى القرن الخامس الهجرى بأنه مجتمع يسوده الترف والرفاهية وكثرة الفرق والمذاهب والجماعات والثقافات المتناحرة أو المتنافسة .

العصر علميا :

لقد استجاب خلفاء الإسلام منذ كان للاسلام دولة لدعوة الإسلام إلى العلم ، وليس ذلك فى حاجة إلى دليل أو بسط مقال . ويكفى أن أميراً من البيت الأموي يشغل عن الخلافة والملك بالعلوم والترجمة . وأن خليفة عباسياً يجعل كل شروطه التي يمليها على خصمه المنهزم أن يتيح لعلماء الخليفة ورجاله ومترجميه أن يطلعوا على مافى خزائنه ، وما لديه من كتب الأولين ، وأن يعطى المترجم زنة مايترجمه ذهبا .

اندفع المسلمون في نقل العلوم — منذ فجر نهضتهم — فى شتى صورها ومن كافة مصادرها . بجانب علومهم الإسلامية ، وما طلع القرن الثالث حتى كانت علوم الدنيا المعروفة كلها بين يدى العرب ثم صارت علوما عربية تماما بمعنى أن العرب ألفوا فيها بلغتهم ، وابتكروا وأصبحوا أئمة وروادا .

وقد كان القرن الخامس من أخصب فترات الحصاد لهذه النهضة العلمية الرائعة ، فقد شهد هذا القرن أعلاما من الأئمة فى كل علم وفن ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

ابن سينا الشيخ الرئيسى صاحب الشفاء (توفى ٤٢٨ هـ) وابن مسكويه من أعلام الفلسفة (توفى ٤٢١ هـ) والبيرونى صاحب المصنفات التى تفوق العد فى التاريخ ، والهيئة ، والنجوم ، والمنطق (توفى ٤٣٠ هـ) والقشيرى صاحب

الرسالة ، توفى (٤٦٥ هـ) والبيهقى أول من جمع نصوص الشافعي ، والذى قيل فيه : ما من شافعي إلا وفى عنقه منة للشافعي إلا البيهقى ، فان له على الشافعي منة ، لتأليف الكتب فى نصرة مذهبه (توفى ٤٥٨ هـ) وأبو محمد عبد الله بن يوسف الجوينى ، والد إمام الحرمين (توفى ٤٣٤ هـ) وأبو عبدالله الخبازى عالم القراءات المتوفى (٤٤٩ هـ) ، وأبو عثمان الصابونى اسماعيل بن عبد الرحمن ، شيخ الإسلام الواعظ ، المفسر ، المصنف ، عمدة التفسير والحديث (توفى سنة ٤٤٩ هـ) والفورانى أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن فوران ، أستاذ إمام الحرمين ، تلميذ القفال ، شيخ الشافعية فى وقته (توفى ٤٦١ هـ) والقفال المروزى (الصغير) عبد الله بن أحمد أبو بكر . وحيد زمانه وعلم الشافعية ، وأستاذ أبى محمد الجوينى (توفى ٤١٧ هـ) . والسلمى ، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدى النيسابورى ، الصوفى ، الحافظ ، صاحب التصانيف التى بلغت نحو مائة مصنف (توفى ٤١٢ هـ) . وابن سيده صاحب المخصص (٤٥٨ هـ) . والأعلم الشنتمرى (٤٧٦ هـ) ، والباخرزى (٤٦٧ هـ) ، والخوافى تلميذ إمام الحرمين ، ورفيق الغزالى (٥٠٠ هـ) ، والمحاشعى صاحب إكسير الذهب (٤٧٩ هـ) ، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى صاحب الإحياء ، والتهافت (توفى ٥٠٥ هـ) .

وليس من العجيب ولا الغريب أن يكون هذا التمزق السياسى والاضطراب الطائفى أحد أسباب هذا الازدهار العلمى ، فقد كانت كل دويلة تحرص على أن يكون لها مدارسها ، وعلمائها ، وأدباؤها ، وشعراؤها ، استكمالا لأبهة الملك ومظاهره . وكل طائفة وكل مذهب ينافح عن آرائه ومبادئه ، فيقدح رجاله الفكر ويعملون الذهن .

خراسان ونيسابور :

فاذا انتقلنا إلى خراسان[1] نجد أن هذه المنطقة ليست بدعا من غيرها ، فقد أصابها القلق السياسى كما أصاب غيرها ، إذ خضعت للبويهيين الذين كانوا يفسرون الشيعة ، ويتعصبون لهم حتى سنة ٤٢٩ هـ ، حيث بدأ ظهور السلاجقة السنيين الذين كانوا يناهضون عن أهل السنة ، ويتعقبون المبتدعة .

(١) تقع منطقة خراسان الآن فى شمالى ايران قرب حدود أفغانستان والاتحاد السوفيتى .

كذا لم تسلم من الفتن المذهبية حتى فى أيام السلاجقة . ويكفى مثالا على ذلك فتنة (الكندرى) الذى أوقع بأهل السنة فيها . ولنورد بياناً وإيضاحاً لها لصلتها بامام الحرمين وأثرها فى حياته :

كان الكندرى[1] هذا وزيراً (لطغرلبك[2]) السلطان السلجوقى ، وكان هذا الوزير خبيث العقيدة متعصباً على أهل السنة ، وزاد على ذلك أمراً آخر هو الحقد ودسائس السياسة ، مما عجل بدفعه إلى الإيقاع بهم ، ذلك أن أبا سهل بن الموفق كان رئيس نيسابور ، وكان رجلا فاضلا محباً للعلم وأهله ، وذاع صيته وعلا شأنه بسبب تقربه من علماء السنة ، وحبهم له ، وتقديرهم لمعاونته ، فخشى (الكندرى) أن ينازعه الوزارة فدبر أمراً ، فأوحى للسلطان (طغرلبك) أن يلعن كل خارج على الدين ، وكل ذى عقيدة فاسدة ، واستصدر الأمر من السلطان (السنى) بلعنهم على المنابر . واتخذ من ذلك ذريعة إلى لعن الأشاعرة وأهل السنة . إذ أخذ أولا يلعن المبتدعة ، ويسب كل فاسدى العقيدة من غير أن يسمى أحداً ، ورويداً رويداً مكن للمعتزلة من المنابر ، وتركهم يتهجمون على الأشاعرة ويسبونهم ، وينسبون اليهم مالا يقولون ، حتى اضطرب الناس ، وحاروا فى أمرهم ، وحاولوا الوصول الى السلطان (طغرلبك) لشرح الأمر له ، ولكنه كان محجباً لا يصل اليه أحد الا عن طريق وزيره الكندرى .

وعندما وصل إليه من وصل ، وشرح له الأمر . سأله : هل الأشعرى يقول كذا وكذا ؟ وكذا ؟ قال : لا . قال السلطان : قد لعنا من يقول ذلك .

اتخذ الكندرى هذه الوسيلة ليحط من قدر غريمه ومنافسه ابن الموفق الذى كانت منزلته فى ازدياد ، ويخشى وصوله الوزارة . كما نفس عن خبث عقيدته ، وفساد مذهبه .

وبالغ الكندرى ، فاستصدر أمراً من قبل السلطان (طغرلبك) بالقبض على الرئيس الفراتى ، وأبى القاسم القشيرى ، وامام الحرمين ، وأبى سهل بن الموفق ، وتهيم ، ومنعهم من المحافل .

---

(١) الكندرى هو : منصور بن محمد أبو نصر . وزير طغرلبك . قتل سنة ٤٥٦ هـ .

(٢) السلطان السلجوقى السنى .

وكان إمام الحرمين قدأدرك ما يدبر ، فخرج قبل القبض عليه ، وكذلك فر أبو سهل بن الموفق ، وقبض على القشيري ، والفراتى ، وغيرهم ، وأغرى بهم العامة والدهماء ، يسبونهم ، ويجرون القشيرى والفراتى ، ويستهزئون بهما .

واحتال ابن الموفق لإخراجهم من السجن ، فلم يستطع ، فذهب إلى ناحية (باخرز) وجمع من أعوانه رجالا عارفين بالحرب ، وأتى باب نيسابور وطلب إخراج الفراتى والقشيرى ، ولما لم يجب دخل أعوانه إلى البلد على حين غفلة من أهلها وأخرجوهما من السجن ، بعد معركة مع جنود الكندري .

ذلك موجز لما فصلته الأخبار[1] عن تلك الفتنة التى تعرض لها علماء السنة بنيسابور نتيجة لدسائس السياسة وأحقاد الكندري وصراع المذاهب . وقد خرج نحو أربعمائة من علماء أهل السنة هجروا بلادهم بسببها .

ولم تكن أحوال خراسان دائمة الاضطراب هكذا ، فقد نعمت تلك المنطقة بفترة استقرار وازدهار منذ تولى السلطان (ألب أرسلان) ومعه وزيره نظام الملك من ٤٥١ – ٤٨٥ هـ ، وقد كان لهذا الوزير أثر فى العلم والدين سيبقى مخلداً فى التاريخ ، وسيظل كل من يكتب تاريخاً لتلك الفترة يذكر النظاميات[2] ويتخذ منها ومن أخبارها مادة لما يكتب ، ومعالم على تاريخ العلم والثقافة .

نيسابور :

أما نيسابور ، فهى أشهر مدن خراسان وأعظمها شأنا ، ويشتهر من مدن خراسان غيرها بوشنج ، وسجستان ، وهراة ، ومرو ، وسرخس ، ونسا ، وطوس ، وأبيورد . . وغيرها .

---

(١) انظر طبقات الشافعية للسبكى ج ٣ ص ٢٩٠ وما بعدها (الطبعة المحققة) .

(٢) المدارس التى أنشأها نظام الملك وحملت اسمه مثل النظامية بنيسابور والنظامية ببغداد والنظامية ببلخ ... وغيرها .

كما كانت هذه المنطقة من أسخى المناطق إنجابا للعلماء والأئمة وستظل المكتبة الإسلامية تزدهي بأسماء الأعلام الذين أنجبتهم نيسابور ، وسرخس ، وسجستان ، وغيرها .

جوين :

أما جوين التي نسب إليها إمام الحرمين ، فهي « اسم كورة[1] جليلة نزهة ، على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور ، يسميها أهل خراسان كويان فعربت ، فقيل : (جوين) حدودها متصلة بحدود بيهق من جهة القبلة، وبحدود (جاجرم) من جهة الشمال .

وهي تشتمل على مائة وتسع وثمانين قرية،وجميع قراها متصلة كل واحدة بالأخرى . وهي كورة مستطيلة بين جبلين في فضاء رحب ، وبينها وبين (نيسابور) نحو عشرة فراسخ . وقد جاءته النسبة إلى (جوين) عن طريق والده فلم يثبت أنه أقام بها ، أو ولد بها ، أو دفن بها . ومما يشهد بأن النسبة جاءته عن والده قوله هو نفسه : « إن لم يدركني الحق بلطف بره فأموت على دين العجائز ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص ـ لا إله إلا الله ـ فالويل لابن الجويني[2] .

فهل يقول عن نفسه : ابن الجويني .

بشتنقان :

أما بشتنقان التي سيرد ذكرها في خبر وفاته ، فهي قرية صغيرة على بعد نصف فرسخ من نيسابور ، فهي إحدى ضواحيها ومتنزهاتها . قيل : أن إمام الحرمين ولد بها . جاء ذلك في دائرة المعارف الإسلامية ، ولعلهم قالوا ذلك استنتاجا ، فلم يصرح به أحد ممن ترجم لإمام الحرمين ، ولعلهم استنتجوا ذلك من أن أباه كان مقيما بها فترة عمله في نيسابور وهو استنتاج ذكي ولعله هو الصواب .

---

(١) كورة أي مجموعة قرى متقاربة تكاد تكون متصلة بعضها ببعض .

(٢) سير النبلاء : ج ١١ ورقة : ٢٥٥ .

هذه صورة للعصر الذى نشأ وعاش فيه إمام الحرمين ، وصورة للبيئة التى أنجبته : قراها ومدنها ورجالها .

فهى بيئة علم نشط (إن صح هذا التعبير) وفكر متوثب وآراء متدافعة متنافسه مما كان حريا أن يؤثر فى نشأة إمام الحرمين ، ويزيد من احتداد قريحته واشتعال ذكائه وتوقد ذهنه .

وفى الصفحات التالية إشارة إلى عناصر أخرى كان لها أثر فى حياة إمام الحرمين .

بيئته ونشأته :

فاذا انتقلنا إلى البيت الذى ولد فيه إمام الحرمين ، وإلى أول نسيم استنشقه ، وأول توجيه تلقاه ، نجد أن والده هو « أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن حيويه الطائى السنبسى[1] » . وروى الذهبى عن ابن الأخرم قال : « سمعت أبا محمد يقول : أنا من سنبس قبيلة من العرب[2] » .

هذا والده إسماً ولقباً وقبيلة وأما منزلته ، فقد كان « إمام عصره بنيسابور تفقه على أبى الطيب سهل بن محمد الصعلوكى . وقدم مرو قصدا لأبى بكر بن عبد الله بن أحمد القفال المروزى . فتفقه به . وقرأ الأدب على والده يوسف الأديب (بجوين) . وبرع فى الفقه ، وصنف فيه التصانيف المفيدة ، وشرح المزنى شرحا شافياً ، وشرح الرسالة للشافعى ، وكان ورعا دائم العبادة شديد الاحتياط مبالغاً فيه ، سمع أستاذيه أبا عبد الرحمن السلمى ، وأبا محمد بن بابويه الأصبهانى وبغـــداد أبا الحسن محمد بن الحسين بن الفضل بن نظيف الفراء ، وغيرهم روى عنه سهل بن إبراهيم أبو القاسم[3] السجزى ، ومات بنيسابور سنة ٤٣٨ هـ .

---

(١) سير النبلاء جـ ١١ ورقة ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) معجم البلدان : ٥ / ١٨٢

وفي سير النبلاء « قال أبو عثمان الصابوني : لو كان الشيخ أبو محمد في بني إسرائيل لنقلت شمائله وافتخروا بها[1] .

وذكروا له من الكرامات ماذكروا ونسبوا سرها إلى فتاويه وأنها كانت السر في هذه الكرامات .

وقالوا : كان صاحب جد ووقار ، مجتهداً في العبادة ، مهيباً بين عارفيه وتلاميذه[2] .

هذا والده الإمام الفقيه المحدث الورع العابد المبالغ في الاحتياط .

وإذا نظرنا في ناحية أخرى من البيت نجد جده رجلا مرموقا في جوين ألم يقل لنا ياقوت آنفاً : إن والد إمام الحرمين قرأ عليه الأدب .

وفي جانب آخر من البيت نرى عمه « أبو الحسن علي بن يوسف الجويني المعروف بشيخ الحجاز . كان صوفياً لطيفاً ظريفاً فاضلا ، مشتغلا بالعلم والحديث . صنف كتابا في علوم الصوفية مرتبا مبوبا سماه كتاب السلوة سمع شيوخ أخيه وسمع أيضا أبا نعيم بن عبدالملك بن الحسن الإسفراييني بنيسابور وبمصر أبا محمد عبد الرحمن بن عمر النحاس . وروى عنه زاهر ورجب ابنا طاهر الشحاميان[3] » ومات بنيسابور سنة ٤٩٣ هـ .

فجده أديب مرموق ، وعمه صوفي محدث ، ووالده فقيه عابد . وما أحسن قول ابن عساكر في التبيين « رباه حجر الإمامة وحرك ساعد السعادة مهده ، وأرضعه ثدي العلم والورع إلى أن ترعرع فيه ونبغ[4] » .

---

(١) لعل المعنى : ان بني اسرائيل الذين لا يعترفون بالفضل للانبياء ، ويؤذونهم ويقتلونهم كان هؤلاء يعترفون بفضل امام الحرمين ومنزلته .

(٢) ١١ ١٣٧ .

(٣) معجم البلدان ٥ / ١٨١ ــ ١٨٢ ولم نجد ذكرا لرجب هذا في كتاب من كتب التراجم التي رأيناها وانما الذي رأيناه « وجيه » فلعله تصحيف .

(٤) ج ٢ ورقة ٧٣ ــ ٧٤ .